الإمام محمد عثمان الميرغنيّ الختم وجهوده النّحويّة

دكتور/ محمد عبد الله آدم عثمان(١)

الملخص

تناولت الدِّرَاسَةُ هَذه عَلَمًا منْ أَعْلَام الأُمَّة الإِسْلَاميَّة وَالسُّودَانيَّة، ذكْرًا لسيرَته، وَتَبْيينًا لجهُوده النَّحْويَّة، وَقَدْ حَمَلَت الدِّرَاسَةُ عُنوانَ: (الإمَام محمد عُثْمَان الميرغنيّ الختم وجهوده النّحويّة)، واقتضت طبيعة الدّراسة تقسيمها إلى مبحثين: مبحث تناول ترجمته، ومبحث آخر اهتمّ بإظهار جهوده النّحويّة، وسلكت الدرّاسة المنهج الوصفيّ التّحليليّ. وتُوُصِّلَ إلى نتائج عديدة، منها: أنّ الإمام محمد عثمان الميرغني قد أسهم بجهوده النّحويّة في المستويات كلّها؛ تدريسًا للطّلّاب، وشرحًا لأمّات الكتب، وتعليقًا عليها، وحلًّا للعويص من ألفاظها، وتأليفًا للأبواب النّحويّة، وذلك كلّه يجيءُ منه منظومًا ومنثورًا.

Abstract

This study is biography about one of the Islamic nation and the Sudanese scholars . The study entitled : (Imam Mohamed Osman Mirghani al khatm and his grammatical efforts). The study, was divided into two topics: One was his biography and the other showing his grammatical efforts. The study adopted the descriptive-analytical method. Many conclusions were reached, including: Imam Muhammad Osman al-Mirghani had contributed in grammatical efforts at all levels, teaching students, explaining books, commenting on them, and gives the meanings to the intractable vocabulary, and a synthesis of the grammatical sections, and all that in form of prose or poetry.

(١) أستاذ النّحو والصّرف المساعد – جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلاميّة – فرع كردفان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُقَدِّمَـــةٌ

الحمد لله الآمر بالقراءة والتزوّد بالتّقوى، والصّلاة والسّلام التامَّان الأكملان على سيّدنا محمد أهل الإيمان والتّقوى، أفصح العرب، وأفضل الخلق.

أما بعد:

فإنّ علم النّحو يُعدّ عمود العربيّة، وتوخّيه يُعدُّ ذِروة سنامها الّذي من خلاله تستنبط الأحكام الفقهيّة، وتُفهم النّصوص الشّرعيّة، تفسيرًا وفقهًا وتوجيهًا، ولهذا نال النّحو الاهتمام الأوفى من أهل العلم سالفهم وحاضرهم، وماضيهم وباقيهم، ومنهم من اتَّخذه علمًا أفنى حياته في التّنقيب في أظابيره وأحافيره، ومنهم من تفنَّنَ في التّأليف في شوارده وموارده جاعلًا منه علمَ وسيلةٍ، يجب تعلّمه لبلوغ الغاية ومن هؤلاء العلماء الإمام السّيّد محمد عثمان الميرغنيّ الختم المكيّ الحسنيّ (١٢٠٨هـ - ١٢٦٨هـ) ذالكم الرّجل الّذي يُعتبر من أعيان القرن الثّاني عشر الهجريّ، فهو عالم نحرير لا يُشقّ له غبار في فنون شتَّى من علوم الدّين واللّغة، وهو شاعر خنذيذ مَلَكَ ناصية اللّغة والبيان، وإضافة على ذلك فهو من الشّخصيّات العظيمة الّتى أثّرت في تاريخ السّودان الحديث وما زالت، دعوةً وإرشادًا وتوجيهًا وتزكيةً.

وقد رفد الإمام الختم - كغيره من أعلام القرن الثّاني عشر الهجريّ - المكتبة الإسلاميّة بمجموعة كبيرة من المظان والمراجع التي لا غنًى عنها لطّلاب العلم، منها على سبيل المثال كتابه الّذي يمثل حجر الرّحى للدّراسة هذه: (غُنية الصّوفيّة في علم العربيّة) وهي منظومة في النّحو أبسط من الآجروميّة قام بشرحها ابن النّاظم السّيّد محمد سرّ الختم (توفي ١٢٧١هـ) وهي مخطوطة يعكف على تحقيقها الآن عالمان جليلان من فضلاء الطّريقة الختميّة بالسّودان هما: الشّيخ سيف اليزن محمد أحمد أحد محققّي الختميّة وناشري دررها حفظه الله تعالى، والشّيخ محمد ميرغني جمرة من خادمي الطّريقة النّشطاء، وقد أخذتُ الإذن من الأخير بكتابة ورقة علميّة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في جهود الإمام الختم النّحويّة فأذن لي بذلك، وتكرّم بإمدادي وإسعادي بالكتب النّادرة والمعلومات الدّقيقة الباهرة عن الإمام الختم فجزاه الله عنّي وعن الإسلام خيرًا، وزاده علمًا نافعًا رافعًا.

أَهَمِّيّةُ البحث:

تنبع أهمّيّة البحث – بصورة عامّة– في إبراز ما لعلماء القرن الثّاني عشر الهجريّ من فضل وغزارة في العلم، وإيضاح خطل ما ذهب إليه بعض النّقاد بوصف هذا القرن بأنّه عصر انحطاط لغويّ، وما يمثله الإمام الختم بصورة خاصّة من غزارة في العلم، كأنما بَعَجَت له العلوم ما في معاها، وانقاد له الأدب ذلولًا طيِّعًا، وألقت له علوم الدّين واللّغة كلّها مفاتح كنوزها حتّى تربّع على عرشها. كما تأتي الأهمية في تناول البحث لجانبٍ لا يعرفه كثير من الناس عن الإمام الختم وهو التأليف في علوم النّحو.

أَهْدَافُ الدِّرَاسَة:

تَهْدُفُ الدِّرَاسَةُ هَذِه إِلَى مَا يَلِي:

- إِبْرَازُ القيمة العلميّة لعلماء القرن الثّاني عشر الهجريّ، ذلك القرن الّذي ظُلِمَ ولم يُعطَ حقّه من الدّرس والتّمحيص.
- التّعريف بالإمام محمد عثمان الختم إظهارًا لمكانته العلميّة الرّفيعة، واعترافًا به علمًا من أعلام العربيّة الذين برعوا فيها، وامتلكوا ناصية البيان في علومها.
- رفد الدّراسات السّودانية بجهود عالم لم يَعْرِفْ عنه كثيرٌ من السّودانيّين إلّا أنّه منشئُ الطّريقة الختميّة؛ ويكونون بذلك قد عَرَفوا عنه جانبًا واحدًا من جوانبه العديدة حيث كانت للإمام الختم صولات وجولات وتضحيات في ميادين التّعليم شيخًا ومرشدًا ومربيًا وداعيةً،ومؤلّفًا مُجيدًا، وأديبًا نحريرًا حتّى لُقِبَ بـ(الأستاذ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تساؤلات الدّراسة:

تجيب الدّراسة عن التّساؤلات الآتية:

- مَنِ الإمَامً محمد عثمان الميرغنيّ الختم؟
- ما جهوده في علم النّحو؟

مَنْهَجُ الدِّرَاسَة:

ارتأى الباحث اتّخاذ المنهج الوصفيّ التّحليليّ الذي يتناسب وطبيعة النّوع هذا من الدِّراسات.

الدّراسات السّابقة:

لم يقف الباحث على دراسة تناولت جهود الإمام محمد عثمان الختم النّحويّة، ولكنّه وجد بعض الدّراسات في جهوده في علوم أخرى، منها:

- رسالة عنوانها: (منهج الختم الكبير في كتابه تاج التّفاسير لكلام الملك الكبير)، نالت بها الطّالبة الزّهراء أحمد الأمين درجة الدّكتوراه من جامعة الخرطوم تحت إشراف البروفيسور الحبر يوسف نور الدّائم.
- رسالة عنوانها: (القراءات الواردة في تفسير الميرغنيّ الكبير، جمعًا ودراسةً وتوجيهًا)، نال بها الطّالب عوض إبراهيم مختار الكابس درجة الدّكتوراه من جامعة أمّ درمان الإسلاميّة.
- رسالة عنوانها: (تخريج الأحاديث والآثار في كتاب تاج التّفاسير للإمام محمد عثمان الميرغني الختم، من سورة الأعراف إلى سورة النّاس)، نال بها الطّالب أحمد محمد تجاني الأندونيسيّ درجة الماجستير من الجامعة الأردنيّة.

محتويات الدِّرَاسَة:

اقتضت طبيعة الدّراسة هذه تقسيمها إلى مبحثين:

المبحث الأول: **التعريف بالإمام محمد عثمان الميرغني الختم**، وَتنُوِّلَ فيه، العناوين: نسبه الشّريف، ومولده ونشأته وأخذه العلم، وتصوّفه، وطريقته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الختمية، ونشره للعلم، ورحلاته، وأشهر خلفائه وتلاميذه في السّودان، وملكته الأدبيّة، ومؤلّفاته، ووفاته.

المبحث الثّاني: تناول بالذّكر **بعض الكتب النّحويّة الّتي ألّفها الإمام الختم**، مع التّركيز على مخطوطته: (غنية الصّوفيّة في علم العربية).

ثُمَّ **خَاتِمَةٌ وَنَتَائِجُ وَتوصِيَاتٌ**. وثَبْتٌ لِأَهَمِّ **المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ**.

المبحث الأوّل

التّعريف بالإمام محمد عثمان الميرغني الختم

نسبه الشّريف:

هو السّيّد محمد عُثمان بن السّيّد محمد أبي بكر بن السّيّد عبد الله الميرغني المحجوب[(١)]، ينتهي نسبه في الدّوحة النّبويّة الشّريفة، كما أثبتها له المؤرّخون فقال: هو محمد عثمان بن محمد أبي بكرٍ بن عبد الله المحجوب بن إبراهيم بن حسن بن محمد أمين بن عليّ ميرغني بن حسن بن ميرخورد بن حسن بن أحمد بن عليّ بن إبراهيم بن يحيى بن حسن بن أبي بكر بن عليّ بن محمد بن إسماعيل بن ميرخورد البخاريّ بن عمر بن عليّ بن عثمان بن عليّ التّقيّ بن السّيّد عليّ الخالص بن عليّ الهادي بن محمد الجواد[(٢)] بن الإمام عليّ الرّضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصّادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام عليّ زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام عليّ بن أبي طالبٍ كرّم الله وجهه، وهو ابن السّيّدة فاطمة الزّهراء رضي الله عنهم أجمعين[(٣)]. وهو نسب حقّقه العلّامة الحافظ محمد مرتضى الزّبيديّ[(٤)] رحمه الله تعالى.

(١) في حضرة الإمام الختم، د. أسامة خليل، شركة مطابع السّودان للعملة المحدودة، الخرطوم – السّودان، ط١، (٢٠١٧م)، صـ ٢٠ .
(٢) عجائب الآثار في التّراجم والأخبار، عبد الرّحمن بن حسن الجبرتيّ، دار الجيل، بيروت – لبنان، بدون (ط، ت)، ١٤٧/٢ .
(٣) رسالة الشّهاب في كشف النّقاب، الخليفة عبد العزيز محمّد الحسن، أم درمان – السّودان، صـ ١٠.
(٤) المعجم المختصّ، الحافظ محمّد مرتضى الزّبيديّ، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت – لبنان، ط١، (٢٠٠٦م)، صـ ٢٦٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مولده ونشأته وأخذه العلم:

ولد الإمام الختم في قرية السّلامة بالطّائف في سنة ١٢٠٨هـ الموافق له ١٧٩٣م، وتُوُفِّيتْ أُمُّه قريبًا من سابعِ ولادته، فربّاه والده السّيّد محمد أبو بكر إلى أن جاوز عشر سنين ثمّ توفي والده، فتولّى أمره عمّه العلّامة السّيّد محمد يس حيثُ انتقل به إلى مكّة فحفظ القرآن الكريم وأتقن على يديه علوم الظّاهر من نحو ولغة وفقه وحديث وتفسير وهو دون البلوغ، كما أخذ عن عدد من علماء البلد الحرام حتّى تأهّل للتّدريس في سنّ باكرٍ[(١)].

وهو -كما سبق - سليل بيت الشّرف والعلم فجدّه القريب مفتى الدّيار الحجازيّة هو العلّامة المحقّق، والمحدّث الفقيه الأصوليّ الأديب، الورع الصّوفيّ المُرَبِّي، أبو السّيادة عفيف الدّين السّيّد عبد الله[(٢)] المحجوب الميرغني[(٣)] دفين الطّائف، فقد كان أوحد عصره ووحيد مصره لم يدانيه في مجموعة الفضائل أحد ولم يزل حميد المسعى جميل السّيرة بهيًّا وقورًا مهيبًا عند الأمراء والوزراء حتّى وافاه الحمام ليلة الجمعة لثلاث خلون من عاشوراء عام (١١٩٣هـ)[(٤)]، فقد ترعرع الإمام الختم في بيت العلم هذا، وشرب من كأسه، ونال منه النّصيب الأوفى والقِدح المعلَّى، فجاء عالمًا عاملًا، وفقيهًا كبيرًا، وأديبًا نحريرًا؛ ليكون همزة الوصل بين الآباء والأبناء، فهو منشئ الطّريقة الختميّة، وهو الّذي فتح لأبنائه الأبواب لينتشروا للدّعوة في العالم الإسلاميّ في بلاد السّودان ومصر واليمن وإثيوبيا وإريتريا وغيرها.

(١) المزن الهتّان في دور الختمية في نشر العلم بالسودان، وليد قاسم، الخرطوم – السّودان، بدون (ط، ت)، صـ ٦٠.
(٢) الموجز العزيز على المعجم الوجيز، السّيّد عبد الله المحجوب، مطبعة العيّاشيّ، أمّ درمان – السّودان، ط١، (٢٠١٧م)، صـ ٥.
(٣) الميرغني: أصلها (أمير غني)، ينظر: المختصر من كتاب نشر النّور والزّهر في تراجم أفاضل مكّة، عبد الله أبو الخير، صـ ١٣٦.
(٤) الموجز العزيز على المعجم الوجيز، السّيّد عبد الله الميرغنيّ المحجوب، مرجع سابق، صـ ١٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تصوّفه:

كان في مكّة تعلمه وتصوّفه[1]، فقد بدأ الإمام الختم سيره في طريق التّصوّف حيثُ أخذ أوَّلًا الطّريقة النّقشبنديّة عن الشّيخ أحمد بن محمد بناه المكيّ، ثمّ أخذها ثانية ومعها الطّريقة الشّاذليّة والطّريقة القادريّة وغيرهما من الأذكار عن الشّيخ سعيد العاموديّ المكّي ساكن أبي قبيس، ثم أخذها أيضًا – أي النّقشبنديّة – عن الشيخ أحمد بن عبد الكريم الأزبكيّ، وكان قد أخذها قبله عن مشائخ كثيرين كلهم بمكة المكرمة وأخذ بعض الطرق عن السيد أحمد عبد الكريم الهنديّ، وأيضًا أخذ طرقًا أخرى عن شيخه وعمه السيد محمد يس الميرغني، ولقد اجتمع الإمام الختم بالسيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل مفتى زَبِيد وهو الذي دلّه على شيخ إرشاده الأكبر السّيّد أحمد بن إدريس، وهو من أشراف المغرب، وكان صاحب دروس بالمسجد الحرام. وقد أخذ الإمام الختم عن شيخه أحمد بن إدريس محتويًا عن الطّريقة النّقشبنديّة ومعها الطّريقة الشّاذليّة.

طريقته الختميّة:

بعد أن أخذ الإمام الختم كل هذه الطرق بأسانيدها وأُذن له في جمعها أسّس طريقته المسمّاة بـ(الطّريقة الختميّة)، وهي محتوية على أذكار خمس طرق هي: النّقشبنديّة والقادريّة والشّاذليّة والجنيديّة، بالإضافة إلى الميرغنيّة، وهي طريقة جدّه السّيّد عبد الله الميرغنيّ المحجوب عالم الحرم المكّيّ ودفين الطّائف. وقد رَمَزَ الإمام الختم لطريقته الختميّة بـ(نَقش جَم)، أي: أنّها تَنْقُشُ التَّصَوُّفَ في الفُؤَادِ جَمّ، فَالنّون للنّقشبنديّة، والقاف للقادريّة والشّين للشّاذليّة والجيم للجُنيديّة والميم للميرغنيّة.

(١) معجم المؤلفين، عمر بن رضا بن محمد بن راغب بن عبد الغنيّ كحّالة الدّمشقيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت – لبنان، بدوت (ط، ت)، ٢٨٦/١٠.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد قامت الطّريقة الختميّة بدورٍ مُهمٍّ على الصّعيدين الدّينيّ والاجتماعيّ في السّودان على وجه الخصوص بفضل مجاهدات الإمام المؤسس السّيد محمد عثمان الميرغني الختم[(١)] حتّى عدّه المؤرخ البروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم من أهمّ الموجات الدينية الكبيرة التي أثّرت في المجتمع السودانيّ[(٢)].

نشره للعلم:

بعد أخذه العلم على عدد من أهل العلم والعرفان، وظهر نبوغه على الأقران، تصدر للإفتاء والإقراء والتّدريس بالمسجد الحرام بمكّة المكرّمة وعمره لم يتجاوز الخامسة عشر، وبعد ذلك هاجر لنشر الدّعوة، وقد كان يُدرّس العلوم بنفسه ويعظ، ومما يدلّ على غزارة علمه، وتمكنه من علوم الشّريعة المختلفة، ما ترجم له به الخليفة ابن إدريس في كتابه الإبانة حيثُ قال: "يدرّس العلم بنفسه من توحيد وفقه ونحو ذلك من حديث وسير ونحو وبيان، ما ترك فنًّا من فنون العلم إلا ألّف فيه"[(٣)].

رحلاته:

تعدّدت رحلات الإمام محمد عُثمان الختم لنشر الإسلام ومنهج طريقته الختميّة المشيّدة على الكتاب والسّنّة في الأقطار المختلفة، شملت اليمن ومصر وإثيوبيا وإريتريا والصّومال، غير أنّ السّودان قد وجد النّصيب الأكبر من تلك الرّحلات[(٤)].

دخل الإمام السّيّد محمد عثمان الميرغنيّ الختم السّودان في عام (١٢٢٩هـ) الموافق له عام (١٨١٧م) داعيًا إلى منهجه عبر طريقته الّتي سمّاها (الختميّة)، وحاملًا معه ذخيرة من العلوم الشّرعيّة على المنهج الّذي ذكرناه آنفًا، فقد كان عالمًا

(١) في حضرة الإمام الختم، د. أسامة خليل، مرجع سابق، صـ ٢٣.

(٢) مقدّمة الإبانة النّورية في شأن الطريقة الختميّة، الخليفة أحمد بن أحمد المشهور بابن إدريس الرّباطابيّ، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط١، (١٩٩١م)، صـ ١٤.

(٣) الإبانة النّوريّة في شأن صاحب الطّريقة الختميّة، خليفة الخلفاء أحمد بن إدريس الرّباطابيّ، تحقيق: الدّكتور محمّد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط١، (١٩٩١م)، صـ ١٥٤.

(٤) في حضرة الختم، د. أسامة خليل، مرجع سابق، صـ ٢٣-٢٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متضلعًا في علوم القرآن والتّوحيد والفقه والحديث والسّيرة واللّغة والتّصوّف وغير ذلك، فطاف ربوع السّودان ومرّ على بيئات متباينة جدًّا، فمنها مناطق لم يجد فيها من الإسلام إلا رسمُه وقد نشأ فيها جهلٌ شديد، وعلى النّقيض من ذلك فقد وجد حواضر فيها تأريخ عريق في الفقه والعلوم الشّرعيّة كـ (الأبيض وسنّار)، وبقيّة من آثار العلماء الأوائل الّذين انتشروا يُدرسون النّاس القرآن وكتب الفقه المالكيّ كالرّسالة ومختصر خليل وعقيدة التّوحيد.

لم يجد الفقهاء المالكيّة في ذلك الوقت حرجًا في أن ينتسبوا إلى هذا الشّريف الوافد إليهم ويندرجوا في سلك طريقته الجديدة، إذ هو قد اتّفق معهم في المنهج العام: حيث كان على عقيدة الأشعريّ، وعلى مذهب الإمام إبي حنيفة في الفقه، وكان داعيًا إلى طريقة مكونة من خمسة طرق، منها طريقتان ذواتا وجود قديم في السّودان هما القادريّة والشّاذليّة. ولم يكن كونه حنفيًّا ليحول بينه وبين التّواصل معهم لأنّ الاختلاف بين المذاهب الفقهيّة لا يكون سببًا للتّفرقة[(١)].

ثمّ إنّ الإمام الختم قد بهرهم بصدقه وشبابه وحماسته وتجديده في أسلوب الدّعوة وكونه من السّادة الأشراف[(٢)]، فكان أن دخلوا في طريقته أفواجًا، هم ومَنْ تحت إِمْرَتِهِمْ من التّلاميذ. وهكذا نشر الإمام الختم طريقته، ونشر معها من العلوم النّافعة تدريسًا وتأليفًا، فأخذ عنه خلفاؤه هذه العلوم وبثّوها من بعده لتلاميذهم، وكان الكثير منهم من العلماء ابتداءً فشجّعهم على نشر العلم وحثهم عليه، ولم يمنعهم[(٣)].

وقد جاء الإمام الختم إلى السّودان مرّتين بعد المرّة الأولى، ونشر طريقته في شمال السّودان وفي شرقه وفي كردفان حيث تزوّج من منطقة بارا من السّيّدة رقيّة

(١) المزن الهتان، وليد قاسم، مرجع سابق، صـ ٨٥.
(٢) عجائب الآثار في التّراجم والأخبار، الجبرتيّ، مرجع سابق، ١٤٧/٢.
(٣) المزن الهتّان، وليد قاسم، مرجع سابق، صـ ٨٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بنت جلّاب[١]، وأنجب ابنه محمد الحسن الميرغنيّ (أبو جلالبيّة)، دفين كسلا. ويُعدّ الإمام الختم لدى المؤرّخين أوّل مَنْ اشْتُهِرَ مِنَ الأُسْرَةِ الميرغنيّة بمصرَ وَالسُّودانِ[٢]. وقد طاب له المقام واستقرّ حين من الدّهر بالختميّة جنوبي مدينة كسلا[٣].

أشهر خلفائه وتلاميذه في السّودان:

اشتهر اتباع الطّريقة الختميّة في ذلك الزّمان بالكثرة، والصّدق في الالتزام بمبادئها، حتّى وصلوا إلى مراتب عالية من الإرشاد والتّوجيه، بل منهم من استقلّ بذاته، وأنشأ له طريقة مستقلّة، ونذكر منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

١- القاضي عربيّ الهواريّ: (وُلد عام ١١٩٣هـ - الموافق له عام ١٧٧٩م): قاضي القضاة وخليفة خلفاء الطّريقة بكردفان.

٢- الشّيخ أحمد الرّيح السّنهوريّ: كان من أكبر علماء المتمّة، وقد أخذ عن الإمام الختم وأمر أتباعه بالأخذ عنه.

٣- الفقيه محمود بادي خال ابن الختم محمد الحسن (أبو جلالبية) كان عالمًا عاملًا أديبًا، توفي (١٢٦٨هـ الموافق له ١٨٦٦م).

٤- الشّيخ إسماعيل الولي (توفّي ١٢٨٠هـ، الموافق له ١٨٦٤م): كان حين قدوم الإمام الختم إلى كردفان من العلماء العاملين يعلم التّلاميذ القرآن والفقه ويجتهد في الذّكر والعبادة، عمل على نشر الإسلام بجبال النّوبة فنجح نجاحًا كبيرًا، وأسلم على يديه أعداد غفيرة، وقد أنشأ بعد ذلك طريقته الخاصّة وسمّاها بـ (الإسماعيليّة)، وللشّيخ إسماعيل أكثر من سبعين مؤلّفًا ما بين كتاب وديوان في الفقه والتّوحيد والتّصوّف واللّغة وغيرها.

(١) في حضرة الإمام الختم، د. أسامة خليل، مرجع سابق، صـ ٢٤.

(٢) معجم أعلام شعراء المدح النّبويّ، محمد أحمد درنيقة، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، ط١، صـ ٣٧٣.

(٣) الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن عليّ بن فارس، الزّركليّ، الدّمشقيّ، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١٥، (٢٠٠٢م)، ٢٦٢/٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الشّيخ أحمد حامد: "إنّ الإمام الختم في كلّ رحلاته كان يبعث خلفاءَهُ وسراياه إلى مختلف البلاد للدّعوة إلى الله فلم يقتصر نشاط الطّريقة على الإمام وحده، بل سرت روح الحماس والبركة في كلّ الأتباع الّذين أكرمهم الله بالسّلوك على يد الختم فكانوا خير أتباع لخير إمام"[(١)].

ملكته الأدبيّة واللّغويّة:

يُعتبر الإمام الختم آية من آيات اللّغة والبيان، ممتلكًا لناصيتها، كأنّما حيزت له اللّغة بحذافيرها، ويُعتبر من أوائل شعراء المديح الفصيح في الأدب السّودانيّ، وقد استوفى الإمام شعر المديح النّبويّ بكلّ مكوّناته[(٢)]، ولم يترك شاردة ولا واردة في السّيرة النّبويّة إلّا ذكرها أو ألمح إليها، وقد أجاد أيما إجادة، فمن ذلك وصفه للنّبيّ صلى الله عليه وسلم[(٣)]:

لَهُ أَنْفٌ لُطْف مثْلَ سَيف وَأَصْقَلا ... لَهُ رِيقُ عَذْب كَالبحَار وَأَنْهَلا
لَهُ وَجْنَةٌ كَالْوَرد بَلْ هَيَ أَجْمَلا ... لَهُ قَامَةٌ كَالرُّمّح بَلْ هَيَ أَعْدَلا
عَلَيه صَلَاةٌ وَالسَّلَامُ المُطَيَّبُ

ونجد الإمام الختم متقننًا في وصف آداب السّلوك والإرشاد، والدّعاء والمناجاة، ورموز الصّوفية وإشاراتهم، كلّ ذلك ينظمه الإمام الموفق في عقد فريدٍ من القريض، من ذلك[(٤)]:

كَثُرَتْ ذُنُوبِي وَأَوصَابِي أَيَا سَنَدِي ... يَا رَبُّ يَا اللهُ قَدْ ضَاقَتْ بِيَ الحيَل
وَلَمْ أَدَعْ لَقبيح لَمْ أَجِيْءَ بِه ... وَلَمْ أَبْدِي لفعْل يُحْسَنُ الحَال
فَيَا إِلهِي يَا تَوَّابُ يَا أَحَدُ ... يَا وِتْرُ يَا صَمَدٌ تَتُبْ عَلَيّ، وَلِي
تَجُودُ مِنْكَ بِغُفْرَانٍ لِمَا عَمِلَتْ ... جَوَارِحِي ثُمَّ نِيَّاتِي كَذَا قَولي

(١) الختميّة العقيدة والتاريخ والمنهج، محمد أحمد حامد، دار المأمون، الخرطوم – السودان، ط٢، (١٩٨٧م)، صـ ٣٧.
(٢) في حضرة الإمام الختم، د. أسامة خليل، مرجع سابق، صـ ١٠٩.
(٣) ديوان النور البراق في مدح النبي المصداق، السّيد محمد عثمان الميرغني المكّيّ، دار الوطني للنشر، القاهرة – مصر، ط(٢٠٠٦م)، صـ ٥.
(٤) ديوان مجمع الغرائب المفرقات، السّيّد محمد عثمان الميرغني الختم، مطبعة البابي الحلبيّ، القاهرة – مصر، ط(١٣٥٥هـ)، صـ ٧٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وللختم قصائد ماتعة مباركة تردّد على أسلات ألسنة مريديه وعارفي فضله، فشعره منمنم بالبيان لطيف العبارات.

مؤلّفاته:

قد ترك الإمام الختم تآليف عديدة، في علوم شتّى، منها ما طُبع، ومنها ما لا يزال مخطوطًا، لم ير النور بعد، فقد كتب في التّفسير كتاب (تاج التّفاسير لكلام الملك الكبير) وقد طُبع في مجلّدين، وكتب في الأحاديث النّبويّة الشّريفة كتابًا من (مختصر جامع الأصول)، وكتب في مصطلح الحديث شرحًا لمنظومة البيقونيّ، وقد طبع، وله في الحديث كتاب (رحمة الأحد في اقتفاء أثر الرّسول الصّمد) و(رحمة المنّان في اقتفاء أثر ابن عدنان)، وقد كتب في التّوحيد منظومة (منجية العبيد من هول يوم الوعد والوعيد)، وللإمام الختم شروحات ومؤلّفات أخرى في السّيرة النّبويّة مثل: (مصباح الأسرار)، وهو شرح لكتاب جدّه السّيّد عبد الله الميرغني المحجوب (مشكاة الأنوار)، عطفًا على كتابه المعروف بـ (الأسرار الرّبانيّة في مولد خير البريّة)، الّذي اشتُهِرَ في البيئات الصّوفيّة بالمولد العثمانيّ، وهو سيرة مختصرة للنّبيّ صلى الله عليه وسلم[1]، وله (الخزانة القدسيّة) وهو كتاب يقع في عشرين جزء كل جزء محتوٍ على خمسة كتب، وكل كتاب يتحدّث عن اسم من أسماء الله الحسنى، وأكمل المائة بالكلام عن اسم الله الأعظم، وله (الفيوضات الإلاهيّة المتضمّنة للأسرار الحكميّة) وهو كتاب في الحِكَم شرحه بنفسه مستدلًّا بالكتاب والسّنّة، و أمتن في السيرة النبوية نظمًا بديعًا ووضعه على الأحرف الهجائية وسمّاه (النّور البرّاق في مدح النّبيّ المصداق). وله عناوين أخرى في فنون مختلفة،منها: (الأنوار المتراكمة)، (ديوان مجموع الغرائب)، و(مصباح الأسرار في الكلام على مشكاة الأنوار في سيرة النّبيّ المختار)، و(ديوان النّفحات

(١) في حضرة الإمام الختم، د. أسامة خليل، مرجع سابق، صـ ٢٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المدنيّة في المدائح المصطفويّة)[1]، وغيرها.

كما له في التّصوّف العديد من الرّسائل منها: (حبل الوصال) و(الفتح المبروك)، و(الهبات المقتبسة)، و(رسالة الحضور في الصّلاة)، و(مجموع الأوراد)، و(راتب الأسرار المترادفة)، و(كتاب الوعظ الثّمين في تعمير أعصار رمضان الثّلاثين)، وغير ذلك كثير.

وبالجملة فمؤلّفات الأستاذ الختم يصعُب حصرها، وليس هنا مقام البسط في الكلام عنها ولا في مقام الحديث عن الجوانب المختلفة في حياته، لا تصوّفه ولا مجاهداته ولا كراماته ولا رحلات الدّعوة، وإنّما إشارات إلى مقامه العلميّ ومجهوده في بذله ونشره[2].

وقد أشار ابنه السّيّد محمد عثمان تاج السّرّ (١٢٥٨هـ - ١٣٢١هـ) في إحدى قصائده إلى مؤلّفات والده بطريقة الكناية فقال[3]:

له التّصانيف في فقه وفي لغة ... وفي حديث وتفسير القراءات
كم أتحفت لذوي الألباب تحفتهً ... من العلومً على شرَط لنيّاتَ

ويستمرّ في ذكر أسماء كتب والده بطريق الكناية، ويذكر في الآخر أنّه لم يقدر على عدّها فضلًا عن روايتها:

وكم له من تصانيف مُحبَّرة ... لم تُحص بالعدِّ فضلًا عن رويات
لأنّه بحر علمٍ ما له طرفٌ ... تغوص في لجّه أهل الدّرايات

وفاته:

توفي الإمام الختم بالطائف سنة ثمانٍ وستين ومائتين وألف لخمس بقين من شوّال، وقيل: لاثنين وعشرين من الشّهر المذكور، (١٨٥٩م) ثمّ نُقِلَ جثمانه

(١) معجم أعلام شعراء المدح النّبويّ، محمد أحمد درنيقة، مرجع سابق، صـ ٣٧٣.
(٢) المزن الهتان، وليد قاسم، مرجع سابق، صـ ٦٤.
(٣) ديوان نفحات الطيب في مدح الحبيب، السيد محمد عثمان تاج السر، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ، القاهرة – مصر، بدون (ط، ت)، صـ ٨٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطاهر إلى مكّة من طريق كرا، ودفن بالمعلا يوم الاثنين بعد العصر[(١)]، في حوطة المراغنة بالقرب من أم المؤمنين السيد خديجة رضي الله عنها بعد حياة حافلة بالعطاء في الدّعوة والنّصح والإرشاد للعباد، وتأليف المصنّفات الدّينيّة المختلفة. وقد رثاه كثير من العلماء والشّعراء بمراثٍ تفيض لوعةً وحزنًا.

واستخلف على الطريقة أبناءَه الّذين كانوا منارات للهدى، فكان خليفته في الحجاز السّيّد جعفر الصّادق الميرغني (١٢٤١ – ١٢٧٧هـ)، وفي السّودان كان السّيّد محمد الحسن الميرغنيّ الّذي اشتُهِرَ بالسّيّد الحسن أب جلابية، وفي مصر حفيده السّيّد محمد سرّ الختم بن السيد محمد سرّ الختم بن الإمام الختم (توفي ١٣٣٤هـ – ١٩١٦م)، والسّيّد محمد هاشم الميرغني (توفي ١٣١٩هـ – ١٩٠٢م) على الحبشة وإريتريا، وفي اليمن السّيّد محمد سرّ الختم الكبير (توفي ١٢٧١هـ). وقد حمل أحفادهم راية الدّعوة من بعدهم في الجهات المذكورة وغيرها[(٢)].

المبحث الثّاني

جهود الإمام محمد عثمان الختم النّحويّة

عُرِفَ الإمامُ محمد عُثمان الميرغنيّ الختم بغزارة العلم والتّأليف، وقد امتازت مؤلّفاته بالوضوح والإيجاز البليغ وجودة السّبك والجزالة، فكانت مؤلّفاته ممّا أثار إعجاب وتقدير العامّة والخاصّة[(٣)]، وله في اللّغة العربيّة مؤلّفات عديدة نذكر منها: (شرح ألفيّة ابن مالك) أتمّه في خمسة عشر يومًا، و(الفوائد البهيّة في حلّ ألفاظ الآجُرُّوميّة)، و(شرح ألفيّة السّيوطيّ) المسمّاة (عقود الجمان في علم المعاني والبيان)، و(غُنية الصّوفيّة في علم العربيّة) ، وهي منظومة في النّحو أبسط

(١) المختصر من كتاب نشر النّور والزّهر في تراجم أفاضل مكّة، الشّيخ عبد الله مراد أبو الخير، تحقيق: محمد سعيد العاموديّ، وأحمد عليّ، عالم المعرفة، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ط٢، (١٩٨٦م)، صـ ٤٩٢.

(٢) في حضرة الإمام الختم، د. أسامة خليل، مرجع سابق، صـ ٢٥ – ٢٦.

(٣) في حضرة الإمام الختم، د. أسامة خليل، مرجع سابق، صـ ٢١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الآجروميّة، و(مطلع السّعد في الكلام على أمّا بعد)، و(حاشية على قطر النّدى)، و(أرجوزة في النّحو) وغيرها.

غُنْيَةُ الصُّوفِيَّةِ في علم العربيّة:

تُعَدُّ منظومة (غنية الصّوفية في علم العربيّة) آية في النّظم، مع قوّة في السّبك، ممّا يدلّ على تمكّن صاحبها من ذمام اللّغة والفصاحة، وقد قام بشرحها ابنه السّيّد محمد عثمان سرّ الختم (توفي ١٩٠٣م)، وقد سمّى شرحه بـ (المنحة الإلهيّة والنّفحات الرّبّانيّة على غُنية الصّوفيّة)، وقد جاء شرحًا ظهرت فيه سعة علم ابن النّاظم وتمكنه من علوم اللّغة، وقد نظم قصيدة ذكر فيها تآليف والده – كما مرّ –، وقد أشار إلى (الغُنْيَة) في الأبيات الآتية[(١)]:

وَغُنْيَةُ القَوم مَا اسْتَغْنَتْ عبَارَتُهَا ... مِنْ شَرْحِهِ لِمَعَانِيهَا اللَّطِيفَات
مَوَاهِبٌ خَصَّهُ رَبُّ العِبَاد بِهَا ... مَنْ فَيضِ أَنْوَارِ عَرْفَانٍ مُنِيرَاتَ
يَا طَالِبَ النَّحْوِ، فِي حِفْظِ اللِّسَانِ فَثِقْ ... بِرُكْنِ سَلْمَةَ وَاسْعَدىً بِمُرْقَاةَ

وقال ابتدر الشّارح – رحمه الله – بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم به الإعانة بدأً وختمًا، وصلّى الله على سيّدنا محمد ذاتًا ووصفًا واسمًا. الحمد لله رافع من نحاه، خافضًا جناحه لعباده، الّذي نصب عوايد برّه لمن جزم أنّه الفاعل الحقيقيّ، فما من مفعولٍ إلّا وهو وفق مراده، والشّكر له أن أرسل رسوله بالهدى والبيان، وأكّد شرعه تأكيدًا أوضح الحجّة والبرهان، وأشهد أن لا إله إلّا الله المنعم بالنّعم الّتي لا تُحيط بها الأخبار والالاء الّتي لا انتهاء لها ولا انحصار، وأشهد أنّ سيّدنا محمّدًا عبده ورسوله أعرب النّاطقين بأفصح كلام الّذي ميّز أحوال العباد بتبيين الحلال والحرام المنعوت بأكمل الصّفات المبعوث للعالمين رحمة الّذي عطف على البريّة بعموم رسالته وآتاه جوامع الكلم والحكمة صلّى الله عليه صلاةً لا تدرك لها غاية وسلّم تسليمًا ليس لمبتداه نهاية، وعلى آله الموصول نسبهم بنسبه الّذي

(١) ديوان نفح الطيب في مدح الحبيب، السيد محمد عثمان سر الختم، مرجع سابق، صـ ٨٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا ينقطع نسبهم حتّى تنقطع الأنساب بسببه، وعلى أصحابه الّذين جعل لهم بدل الحسنة أضعافًا مضاعفةً، ومن تبعه من المؤمنين على نهجه القويم وخالفه. وبعدُ:

فهذا شرحٌ لطيفٌ وحلٌّ ظريفٌ، جعلته على مقدّمة سيّدي الوالد نُخبة القادة الأماجد، وسيأتي في المتن ذكر اسمه ولقبه وما اشتُهر به، وسمّيته: (المنجة الإلهيّة والنّفحات الرّبّانيّة على غُنية الصّوفيّة) سالكًا فيها حل نفس المتن بما ليس بإيجاز مخلٍّ ولا إطناب باين، مراعيًا فيه عدم الشّطط لأنّ خير الأمور الوسط، سائلًا من الله أن يجعله خالصًا لأجله، وأن ينفع به نفعًا عامًّا كما عمّم النفع بأصله.

فقلتُ – طالبًا من الله العون متوسّلًا بجاه أشرف الكون – مقدّمة ينبغي لمن حاول علمًا، أيّ علم كان أن يعرف مبادئه ليكون على بصيرة في ذلك الشّأن ومبادئ كلّ علم عشرة جمعها العلّامة المقري:

مَنْ رَامَ فَنًّا فَلْيُقَدِّمْ أَوَّلا ... عِلْمًا بِحَدِّهِ، وَمَوضُوعٍ تَلا
وَوَاضِعٍ وَنِسْبَةٍ وَمَا اسْتَمَدْ ... مِنْهُ وَفَضْلَه وَحُكْم يُعْتَمَدْ
وَاسْمٍ وَمَا أَفَادَ وَالمَسَائِلْ ... فَتِلْكَ عَشْرٌ لِلْمُنَى وَسَائِلْ
وَبَعْضُهُمْ مِنْهَا عَلَى البَعْضِ اقْتَصَرْ ... وَمَنْ يَكُنْ يَدْرِي جَمِيعَهَا انْتَصَرْ

فحدّه علم النّحو علم بأصول يُعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابًا وبناءً، وقيل: آلةٌ قانونيّةٌ تعصم مراعاتها الإنسان عن لحن الإعراب والبناء، ونسبته أنّه من العلوم العربيّة وإنّ العلوم كلّها محتاجة إليه...[1].

ومن خلال المقدّمة هذه، نَخْلُصُ إلى أَنَّ منظومةَ: (غُنية الصّوفيّة في علم العربيّة)، هي منظومة في علم النّحو العربيّ، رفيعة الشّأن، عذبة الألفاظ، سهلة الحفظ، وقد تواتر ذكرها في كثير من الكتب الّتي ترجمة للإمام محمد عثمان الختم.

(١) مخطوطة: (المنحة الإلهيّة والنّفحات الرّبّانيّة على غنية الصّوفيّة)، السّيّد محمد سرّ الختم بن السّيّد محمد عُثمان الميرغنيّ الختم، يعكف على تحقيقها الشّيخان الجليلان: سيف اليزن محمد أحمد، ومحمد ميرغني جمرة. والمخطوطة من نسخة الفقيه محمد الطّاهر الخليفة محمد موسى المستكنابيّ قبيلة البكريّ نسبًا، الّتي كتبها عبد الرّحمن أحمد عام ١٣٢٢للهجرة النّبويّة، صـ ١ – ٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدّمة:

وهي العادة الّتي استنها الفضلاء من أهل العلم، فقال:

الحَمْدُ للهِ الَّذي قَدْ فَضَّلا ... لِسَانَ أَهْلِ النَّحْوِ إِذْ جَلَّ وعَلا
وَأَنْزَلَ الكِتَابَ بِاللِّسَانِ العَرَبِي ... وَأَرْسَلَ العَدْنَانِي به
عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ ... مَا أَعْرَبَ النُّحَاةُ باللُّغَاتَ
وَبَعْدُ فَالخَتْمُ مُحَمَّدْ عُثْمَانَ ... المِيرْغَنِي المَكِّي يَفِدْ لِلإِخْوَانَ
فَرِيدَةً خُذْهَا أَيَا ذَا الفِطْنَةَ ... فِي النَّحْوِ نَظْمًا حَازَ أَصْلَ المِهْنَةَ
سَمَّيْتُهَا بِغُنْيَةِ الصُّوفِيَّةَ ... بِحَسَبِ مَا يُحْتَاجُ فِي العَرَبِيَّةَ
وَأَسْأَلُ اللهَ بِهَا أَنْ يَنْفَعَا ... وَيُصْحِبُ الإِخْلَاصَ قَصْدِي أَجْمَعَا

وقد قسّم الإمام الختم منظومته النّحوية هذه إلى عدّة أبواب بدأها بـ (باب الكلام وما يتألّف منه)، فقال:

كلام ذي النحو أتى مسددا ... لفظ مفيد ركبن ويقصدا
أجزاؤه اسم وفعل حرف ... بالخفض والإسناد اسم يعرف
الذي كذا بتنوين وأل ... والفعل ماضيه بالتا مز ويا أمرا أجل
مضارع ميزه بالسين ولم ... والحرف لم يصحب دليلا يُعتلم

وقد أشار إلى الإعراب معنويّ فقال:

حَقِيقَةُ الإِعْرَابِ تَغْيِيرٌ يَقَعْ ... وَضِدُّهُ البِنَاءُ؛ بِالاسْتِفْهَامِ ضَعْ
لِذَا الشُّرُوطَ وَالضَّمِيرُ اسْمُ الفِعَالِ ... إِشَارَةٌ مَوْصُولَ يَا ذَا وَالهَمَالِ
مَاضٍ بُنِي فَتْحًا كَمَا الأَمْرُ سَكَنْ ... مُضَارِعٌ بُنِي بِيَضْرِبْنَ تَضْرِبَنْ

ثمّ تَحَدَّثَ عَنْ أَنْوَاعِ الإِعْرَابِ اللَّفْظِيِّ:

غير بلفظ أو بتقدير سمي ... مقصور منقوصًا له تعلم
وبحروف الاعتلال في الفعل ... وهي وأي فاحفظ ما به شغلَ
ونوع الإعراب رفعا نصبا ... بالاسم والفعل فحضر قلبا
وخصص الأسماء بالخفض كما ... قد خصص الفعل بجزم حكما

و(بَابُ مَعْرِفَةِ عَلَامَاتِ الإِعْرَابِ):

علم علامات الذي قد أعربا ... للرفع أربع فضم نسبا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم بَاب (عِلْم عَلَامَات الَّذي قَدْ أُعْرِبَا) هكذا سمّاه:

لِمُفْرَد وَجَمْع تَكْسِير إِنَّات ... مُضَارِع مُجَرَّد، وَالوَاوَ هَات
فِي جَمْع تَذْكِير يَكُونُ سَالِمَا ... كـ: قَامَ عِنْدِي الصَّالِحُون الحُكَمَا
وَفِي أَبَ أَخَ حَم ذي مَال ... وَفِي هَنَ أَضِفْ مُكَبَّرًا وَآل
وَمُفْرَدًا أَضِفْ لِغَيْر الياءَ ... بِأَلِف ضُمَّ ثَنِّي الاسْمَاءَ
وَالنُّونِ فِي الأَفْعَال تِلْك الخَمْسَةْ ... كَـ: يَفْعَلَانِ تَسْأَلَانِ الطَّلَبَةْ
وَيَفْعَلُونَ تَذْكُرُونَ تَخْشَعِينْ ... وَعَرِّفِ النَّصْبَ بِخَمْسَ يَا فَطِينْ
بِالفَتْحِ فِي المُفْرَدِ جَمْعِ التَّكْسِيرْ ... مُضَارِعٍ وَصِلْ بِنَاصِبٍ يَسِيرْ
لَمْ يَتَّصِلْ شَيْءٌ بِهِ، وَانْصَبَنْ ... بِأَلِفِ السِّتَّةِ الأَسْمَاءَ تُصَنْ
وَكَسْرَةٌ بِجَمْعِ تَأْنِيثٍ سَلِمْ ... نَابَتْ عَنِ الفَتْحِ وَلِلْيَاءِ أَلِمْ
بِجَمْعِ تَذْكِيرٍ مُثَنًّى نَابَتِ ... عَنْهُ وَحَذْفُ النُّونِ نَبْ فِي الخَمْسَةِ
أَفْعَالُنَا وَخُذْ عَلَامَةَ الخَفْضْ ... فِي مُفْرَدٍ مَا صَرْفُهُ حُفِظْ
وَمِثْلُهُ جَمْعُ التَّكَاسِيرِ وَعِ ... وَجَمْعُ تَأْنِيثٍ مَعَهُمَا اجْمَعِ
وَالْيَاءُ فِي السِّتَّةِ الأَسْمَاءَ أَنِبْ ... عَنْهُ وَفِي جَمْعٍ مُذَكَّرٍ حُسِبْ
وَفِي المُثَنَّى ثُمَّ عَنْهُ الفَتْحَةْ ... نَابَتْ بِاسْمِ صَرْفِهِ قَدْ مَنَعَهْ
وَمَنْعُهُ بِعِلَّةٍ مِنْ عِلَلِ تِسْعْ ... اثْنَانِ مُفْرَدَانِ يَبْدُ المَنْعْ
صِيغَةُ الجُمُوعِ مَعَ أَلِفِ التَّأْنِيثِ ... قَصْرًا وَمَدًّا خُذْهَا لِلتَّحْتِيثِ
وَاثْنَانِ مَعَ غَيْرِهِمَا سَيُمْنَعَا ... عَلَمِيَّةٌ وَصْفٌ وَسَابِقٌ مَعَا
زِدْ عُجْمَةً تَأْنِيثَ وَزْنَ عَدْلِ ... رُكِّبَ مَعَ الوَصْفِ ثَلَاثًا أَجْلِ
عَدْلُهُمْ وَالوَزْنُ وَالزِّيَادَةْ ... وَأَلِفُ الإِلْحَاقِ زِيدَتْ عَاشِرَةْ
وَعِنْدَهُمْ عَلَامَةُ الجَزْمِ ثَنَا ... يَسْكُنُوا مُضَارِعًا صَحَّ هُنَا
وَالحَذْفُ عَنْهُ نَابَ المُعْتَلْ ... وَخَمْسَةُ الأَفْعَالِ عَنْهُ أَمِلْ

وَبَابُ الأَفْعَال:

بَابُ أَفْعَالٍ عِنْدَ مَعْشَرِ النُّحَا ... مَاضٍ أَمْرٌ حُكْمُهَا
قَدْ سُقْتُ مُضَارِعَ (أَنَيْتُ) فِي أَوَّلِه ... وَاحِدُهَا، وَارْفَعْهُ مَا لَمْ يَأْتِه
مِنْ لَفْظِ نَاصِبٍ: كَأَنَّ لَنْ ... - ثُمَّ- إِذَنْ، وَمَا أَضْمَرَ بَعْدَهُنَّ

وقد تواترت الأبواب النّحويّة في المنظومة المباركة، مثل: باب كان وأخواتها، وباب المبتدأ والخبر، والفاعل ونائبه، والضمائر المتصلة والمنفصلة، وباب الكلام في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفعولي ظننت وأخواتها، وباب النّعت، وباب إنّ وأخواتها، وبابُ العَطْف، ومنه:

وأتبع المعطوف للمعطوف رفعا نصبًا وخفضًا، ثمّ جزما[1]

وبابُ التّوكيد، ومنه:

كذا من التوابع أصلًا التوكيد رفعًا ونصبًا وخفضًا لا تحيد
يتبع تعريفًا وهو يكونْ بلفظ: (النَّفس والعَين وكل)، فصُونْ

وَبَابُ البَدَل، وَمِنْهُ:

البَدَلُ اسْمٌ تَابِعُ المَقْصُودْ إِعْرَابُهُ بِلَا وَاسِطَةٍ مَحْدُودْ

وباب المنصوبات، الذي قسّمه إلى أبواب صغيرة كـ: (باب المفعول به، وباب المصدر، وباب الظرف: الذي اشترط المصنف فيه أن يتضمّن معني (في) باطّراد؛ ذاهبًا مذهب ابن مالك في ألفيّته[2]:

الظَّرْفُ: وَقْتٌ، أَو مَكَانٌ، ضُمِّنَا (فِي) بِاطِّرَادٍ، كَـ: هُنَا امْكُثْ أَزْمِنَا

ومخالفًا بذلك رأي جمهور النّحاة على عدم اشتراطه)[3].

وكذلك من باب المنصوبات: (باب بيان أحكام الحال، باب بيان أحكام التّمييز، وباب بيان أحكام الاستثناء، وباب بيان أحكام لا الّتي لنفي الجنس، وباب بيان أحكام المنادى، وباب ما يتعلّق بالمفعول لأجله، وباب المفعول معه).

ثمَّ ختمها بباب المخفوضات الّتي قسمها إلى: مخفوض بالحروف. ومخفوض بالإضافة. ومخفوض بالتّبعية كما جرت عليه عادة النّحويّين. وحروف الخفض الّتي اكتفى بذكرها هي: (من، وإلى، وحتّى، وخلا، وربّ، حاشا، وفي، وعن، وعلى، ومذ، والباء، والتّاء، والواو، واللّام، ومنذ، وكي، والكاف، ولعلّ، ومتى)، ولم يذكر

(١) قال الشارح السيد محمد سر الختم في (ثم جزما): إشارة إلى أنّ المعطوف يتبع المعطوف عليه في جزمه، إن كان مجزومًا ولا يكونان إلّا فعلين، لأنّ الجزم لا يدخل الأسماء.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عبد الرّحمن بن عبد الله بن عقيل القرشيّ، تحقيق: محمد محي الدّين عبد الحميد، مكتبة دار التّراث، القاهرة – مصر، ط(٢٠٠٥م)، ١٤٩/٢.

(٣) حاشية الصّبان على شرح الأشمونيّ لألفيّة ابن مالك، أبو العرفان محمد بن عليّ الصّبان الشّافعيّ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، (١٩٩٧م)، ١٨٤/٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حرف الخفض (عدا)، أي: اكتفى بذكر تسعة عشر حرفًا، وأهمل حرفًا واحدًا، لأنّها عشرون حرفًا، قَالَ ابْنُ مَالك – رحمه الله تعالى – في ألفيته المباركة[1]:

هَاكَ حُرُوفَ الجَرِّ، وَهْيَ: مَنْ، إِلى ... حَتَّى، خَلا، حَاشَا، عَدَا، فِي، عَنْ، عَلَى
مُذْ، مُنْذُ، رُبَّ، اللامُ، كَي، الوَاوُ، وَتَا ... وَالكَافُ، وَالبَاءُ، وَلَعَلَّ، وَمَتَى

وفي ختامها بيَّن أنّه قد بدأ في تأليفها في يوم الجمعة وقت الضُّحَى، وأتمها في عصر الجمعة ذاتها، فقال:

بَدَأْتُهَا ضُحًا فِي يَومِ الجُمْعَةْ ... وَتَمَّ قَبْلَ عَصْرِهِ بِقِطْعَةْ[2]

ممّا يدلّ على توفيق به من لدن العليم الخبير، وتمكّنه من اللّغة سبرًا لأغوارها، وفتحًا لأضابيرها.

خاتمـــــة

الحمد لله الّذي جعل اللّغة من أبواب ذكره، والصّلاة والسّلام على أفضل خلقه، وعلى آله وصحبه، وبعد: في ختام الورقة البحثيّة هذه الّتي عنوانها: (الإمام محمد عثمان الميرغنيّ الختم وجهوده النّحويّة)، وبعد سياحةٍ في سيرته العطرة المباركة، ودراسةٍ لجهوده النّحويّة توصّل الباحث إلى نتائجَ عديدة.

نتائج:

ومفادها يتمركز في النّقاط الآتية:

- معرفة الإمام الختم التّامة بعلوم اللّغة: نحوًا وصرفًا وعروضًا وبيانًا ومعانٍ وبديعًا...
- شارك الإمام الختم في كل مستويات التأليف اللغوي المعروفة.
- في منظومته: (غُنية الصوفية في علم العربية)، نجده قد خالف جمهور النّحاة

(١) شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، ابن عقيل، مرجع سابق، ٣/٣.

(٢) بقطعة، أي: بمقدار ساعة، كذا شرحها السّيّد محمد سرّ الختم في (المنحة الإلهيّة والنّفحات الرّبّانيّة على غُنية الصّوفيّة)، مخطوطة، صـ ٢٥٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في بعض القضايا، كتضمين الظّرف معنى (في) باطّرادٍ، كما نجده يستعملُ المصطلحاتِ النّحويّة الكُوفيّة كالخفض في مكان الجرّ.

- كما نجده لم يتعرّض لأبواب اسم الموصول والإشارة، وأفعال المقاربة، والاشتغال، وما لا ينصرف، الاستغاثة والندبة، و عمل الصّفة المشبّهة؛ لأنه أراد منظومة مختصرة أقلّ من الآجروميّة لذا نلفاه ركّز على الأبواب الّتي يُبتدأ بها الدّرس النّحويّ وتكفي الطّالب عمّا سواها.

توصيات:

على الباحثين وأهل العلم بالانكباب على إرث الأسرة الميرغنيّة الشّريفة من أعلاها إلى أعلاها؛ استخراجًا للنّوادر من مخطوطاتها، ودراسةً لكتبها المطبوعة القيّمة، ونذكر من المخطوطات على سبيل المثال لا على سبيل الحصر: شرح ألفيّة ابن مالك في النّحو، وشرح ألفية السّيوطيّ في علم المعاني والبيان، وحاشية قطر النّدى وبل الصّدى، وكلّها للإمام محمد عثمان الختم، ونذكر من الكتب المطبوعة الّتي تحتاج إلى الدّراسة المتخصّصة: الموجز العزيز على المعجم الوجير للسّيّد عبد الله الميرغني المحجوب، وتاج التّفاسير لكلام الملك الكبير للإمام محمد عثمان الختم، وفتح الخلّاق بشرح النّور البرّاق للسّيّد محمد سرّ الختم.

كما أُوصِي الدّارسين بالاهتمام بدراسات السّودانيّة في الجوانب اللّغويّة، مثل: جهود علماء السّودان النّحويّة والصّرفيّة واللّغويّة والبلاغيّة؛ وهي كثيرة موجودة بدار الوثائق السّودانيّة، وفي مكتبات الفضلاء من علماء السّودان، رحم الله من توفِّيَ منهم، وحفظ من بقيَ، ونفعنا بعلمهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصادر والمراجع

١- الإبانة النّوريّة في شأن صاحب الطّريقة الختميّة، خليفة الخلفاء أحمد بن إدريس الرّباطابيّ، تحقيق: الدّكتور محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط١، (١٩٩١م).

٢- الأعلام، خير الدّين بن محمود بن محمد بن عليّ بن فارس، الزّركليّ، الدّمشقيّ، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١٥، (٢٠٠٢م).

٣- حاشية الصّبان على شرح الأشمونيّ لألفيّة ابن مالك، أبو العرفان محمد بن عليّ الصّبان الشّافعيّ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، (١٩٩٧م)،

٤- الختميّة العقيدة والتّاريخ والمنهج، محمد أحمد حامد، دار المأمون، الخرطوم – السّودان، ط٢، (١٩٨٧م).

٥- ديوان النّور البرّاق في مدح النّبيّ المصداق، السّيّد محمد عُثمان الميرغنيّ المكّيّ، دار الوطنيّ للنّشر، القاهرة ٦– مصر، ط(٢٠٠٦م).

٧- ديوان مجمع الغرائب المفرقات، السّيّد محمد عثمان الميرغني الختم، مطبعة البابي الحلبيّ، القاهرة – مصر، ط(١٣٥٥هـ).

٨- ديوان نفحات الطّيب في مدح الحبيب، السّيّد محمد تاج السّر، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ، القاهرة – مصر، بدون (ط، ت).

٩- رسالة الشّهاب في كشف النّقاب، الخليفة عبد العزيز محمّد الحسن، أمّ درمان – السّودان، بدون (ط، ت).

١٠- شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عبد الرّحمن بن عبد الله بن عقيل القرشيّ، تحقيق: محمد محي الدّين عبد الحميد، مكتبة دار التّراث، القاهرة – مصر، ط(٢٠٠٥م).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١١- عجائب الآثار في التّراجم والأخبار، عبد الرّحمن بن حسن الجبرتيّ، دار الجيل، بيروت – لبنان، بدون (ط، ت).
١٢- في حضرة الإمام الختم، د. أسامة خليل، شركة مطابع السّودان للعملة المحدودة، الخرطوم – السّودان، ط١، (٢٠١٧م).
١٣- المختصر من كتاب نشر النّور والزّهر في تراجم أفاضل مكّة، الشّيخ عبد الله مراد أبو الخير، تحقيق: محمد سعيد العاموديّ، وأحمد عليّ، عالم المعرفة، جدّة – المملكة العربيّة السّعوديّة، ط٢، (١٩٨٦م).
١٤- مخطوطة: (المنحة الإلهيّة والنّفحات الرّبّانيّة على غنية الصّوفيّة)، السّيّد محمد سرّ الختم بن السّيّد محمد عُثمان الميرغنيّ الختم، يعكف على تحقيقها الشّيخان الجليلان: سيف اليزن محمد أحمد، ومحمد ميرغني جمرة. والمخطوطة من نسخة الفقيه محمد الطّاهر الخليفة محمد موسى المستكنابيّ قبيلة البكريّ نسبًا، الّتي كتبها عبد الرّحمن أحمد عام ١٣٢٢للهجرة النّبويّة.
١٥- المزن الهتّان في دور الختميّة في نشر العلم بالسّودان، وليد قاسم، الخرطوم – السّودان، بدون (ط، ت).
١٦- معجم أعلام شعراء المدح النّبويّ، محمد أحمد درنيقة، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، ط١.
١٧- المعجم المختصّ، الحافظ محمّد مرتضى الزّبيديّ، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت – لبنان، ط١، (٢٠٠٦م).
١٨- معجم المؤلّفين، عمر بن رضا بن محمد بن راغب بن عبد الغنيّ كحّالة الدّمشقيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت – لبنان، بدوت (ط، ت).
١٩- الموجز العزيز على المعجم الوجيز، السّيّد عبد الله المحجوب، مطبعة العيّاشيّ، أمّ درمان – السّودان، ط١، (٢٠١٧م).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com